

## قواعد الملكة السوسولوجية والمنهج المكتمل في علم الاجتماع

## The Sociological habitus and the complete method in Sociology

أحمد دناقة\* ، سمير عزوني

<sup>1</sup> المركز الجامعي أفلو (الجزائر)، a.dennaka@cu-aflou.edu.dz<sup>2</sup> جامعة طاهري محمد بشار (الجزائر)، samir.azouni@univ-bechar.dz

تاريخ النشر: 2022/06/01

تاريخ القبول: 2022/03/23

تاريخ الاستلام: 2022/03/06

## ملخص:

يدعونا هذا المقال إلى النظر في ممارساتنا ويطمح إلى تعميق النقاش حولها من أجل تطويرها. فإذا كان المنهج هو الوسيلة التي تمكن الباحث من القيام بعمل ما، فإن هذا العمل لا تكون لديه فاعلية إلا إذا كانت المراحل سليمة وواضحة تصحبها المعرفة الدقيقة بالمشكلة وتشخيص سليم للعللة. وفي الحقل السوسولوجي لا يمكن دراسة أي موضوع إلا إذا طرح كمشكلة في المجتمع لأن الباحث يقوم بتحويل المشكلة من واقعها الاجتماعي إلى واقع سوسولوجي وهذا ما نحى نحوه المؤسسون في علم الاجتماع إذ يجب على العلم أن يقود الواقع وليس العكس، كما فعل ابن خلدون ودوركايم وغيرهم ممن قاموا بافتكالك الظواهر الاجتماعية بقوة عقلية، وقاموا بإخضاعها إلى مقاييس معينة. إذن بناء الموضوع وافتكائه هو جزء مما يسمى بالملكة السوسولوجية. فما هي قواعد هذه الملكة وكيف يتم التحكم فيها من طرف الباحث؟.

كلمات مفتاحية: قواعد، الملكة السوسولوجية، المنهج المكتمل، علم الاجتماع.

**Abstract:**

*If the method is the means that enables the researcher to carry out a certain work, then this work will not be effective unless the stages are sound and clear, accompanied by accurate knowledge of the problem and a sound diagnosis of the problem. In the sociological field, no topic can be studied unless it is presented as a problem in society. The researcher transforms the problem from its social reality into a sociological reality, and this is what the founders of sociology leaned towards, as science must lead reality and not the other way around, as did Ibn Khaldun, Durkheim and others who took social phenomena with a mental force and subjected them to certain standards, so building the subject and taking it is part of the so-called sociological habitus. What are the rules of this habitus and how is it controlled by the researcher?*

**Keywords:** rules. Sociological habitus. Completed method. Sociology.

## 1. مقدمة:

المنهج هو عبارة عن وسيلة من أجل القيام بعمل ما، ولكن تتوقف فعالية هذه الوسيلة على سلامة المراحل التي يستخدمها، وكذا وضوحها والمعرفة الدقيقة وتشخيص المرض او العلة والاحاطة بجوانبها من أجل افتكالك الموضوع المناسب الذي لا يكون قابلا للدراسة إلا إذا كان يشكل مشكلة في المجتمع، وكذا مشكلة في علم الاجتماع نفسه. تطرح المشاكل فعليا بمستوى تجريدي يقتضي ضرورة تحويل المواضيع الامبيريقية إلى مواضيع سوسيولوجية، تأسيا بما فعل علماء الاجتماع المؤسسون ك: (ابن خلدون، ودوركايم) عن طريق "المنهج المقارن"، وما فعل (ماكس فيبر) عن طريق ما سمي بـ"منهج الفهم". فبناء الموضوع وافتكائه هو أساس السوسيولوجيا وهو شرط أول وأساسي وحاسم مثل ما يبين (بيار بورديو) في كتابه: "حرفة عالم الاجتماع".

اختلف الباحثون وعلماء المناهج في تحديد المراحل والخطوات التي يعتمدها الباحث في تقصي موضوع ما، وعلى الرغم من هذا الاختلاف إلا أن هناك تداخل وخطوط عريضة عامة يتفقون عليها، ومن هذا المنطلق يمكن أن نؤكد على أن عملية البحث في مجال العلوم الاجتماعية تتم من خلال المسار العلمي الذي بدوره يقوم على ثلاث افعال ينبغي احترام تسلسلها وتسمى هذه العملية بتراتب الأفعال الاستمولوجية، هذه الأفعال هي ما عبر عنه (غاستون باشلار) بـ (القطع، والبناء والتحقق)، إذ يقول بهذا الصدد: "الواقعة العلمية تفتك، تبنى ويتحقق منها" (غاستون، 1982، ص 10)

انطلق العديد من علماء الاستمولوجيا والمناهج من هذه المراحل الثلاث من أجل شرحها وتبسيطها من بينهم بيار بورديو وزملائه في كتاب مهنة عالم الاجتماع، وكذا ريمون كوفي وزملائه من خلال كتابهم: "دليل الباحث في العلوم الاجتماعية".

طور ريمون كوفي الافعال الثلاث إلى سبع مراحل متعاقبة ومتسلسلة منطقيا حيث يتضمن المشهد الأول أي القطع، ثلاث مراحل هي: (سؤال الانطلاق، الاستكشاف،

الإشكالية). أما المشهد الثاني فيتضمن مرحلة واحدة هي: (بناء نموذج التحليل). فيما يحتوي المشهد الثالث على ثلاث مراحل هي: (المعاينة، تحليل البيانات، الاستنتاجات).

## 2. قواعد الملكة السوسولوجية بين القطع والبناء

في العلوم الاجتماعية متاعنا نظري بالدرجة الأولى، ويتكون من العديد من الفخاخ لأن قسما كبيرا من أفكارنا أو مواقفنا يشوبها التحيز في كثير من الأحيان، والحالات تبني على كثير من الأوهام أو الأحكام المسبقة، لذلك فالبناء على هذه المرتكزات كالرسم على الرمل، من هنا تبرز أهمية القطع التي تركز بالتحديد على محاولة جادة لكسر الأحكام المسبقة والبدهييات الخاطئة.

### 1.2 القطع:

هو الفعل التكويني للمسار العلمي، إن هذا المنعرج الاستمولوجي يؤكد على الفصل بين الخطاب العلمي والآراء المشتركة، لأن هذه الأخيرة غارقة في وهم الشفافية ولا تعي أنه لا علم إلا في ما اختفى، هذا ما جعل بورديو يؤكد على أهمية هذا الإجراء المنهجي الذي يتصدر كل خطوات المنهج الذي يهدف إلى إقامة حد بين الأحكام المسبقة والبدهييات الخاطئة من جهة، والفكر العلمي من جهة ثانية، فالأحكام المسبقة يمكن التخلص منها بما يسمى بتقنيات القطع. عندما نقوم بتوضيحها وتوسيعها جيدا واستخدام الإحصاء وذلك من أجل الذهاب ضد الحدسيات الأولية التي تكون هادمة، يأتي بعد ذلك دور التعريف المؤقت كبناء نظري مؤقت، أي الشروع في البحث عن طريق تحديد الشيء المدروس دون التنبؤ بنتائج الدراسة، ثم نقوم بنقد منطقي ولفظي للغة المشتركة انطلاقا من توضيح المفاهيم وشرح الافتراضات المسبقة، هذا فيما يتعلق بالمفاهيم المسبقة وتقنيات القطع. أما فيما يخص وهم الشفافية ومبدأ اللاوعي فيؤكد بورديو على خطر كبير تتعرض له العلوم الاجتماعية من هذا الجانب، فالأمر يتعلق بتوسيع مبدأ الحتمية المنهجية، من منطلق أن كل واقع لديه سبب وإلا نفي العلم.

ويمكن أن نعرف مبدأ اللاوعي انطلاقاً من أن العلاقات الاجتماعية هي علاقات بين الذاتية المنقادة عن طريق الغايات والدوافع لأنها تستقر بين الشروط والوضعيات الاجتماعية، والتي لها في هذا الحدث أكثر واقع من المواضيع التي ترتبط بها.

هناك قطيعة أخرى مع التورط في مصطلح الاتجاه الأخلاقي لعالم الاجتماع مقابل الوقائع أي مبدأ الجهد الأولى وخارجية الوقائع ويعود ذلك إلى طول المدة من جهة وإلى تعدد الفاعلين من جهة أخرى، مما يؤدي إلى غموض العالم الاجتماعي في ذهن عالم الاجتماع، لذا ينبغي التعامل مع الظواهر الاجتماعية كأشياء شأنها شأن الأشياء المادية كما يقرره دوركايم، إذ يجب في نظره اعتبار الظواهر الاجتماعية أشياء ويجب أن تدرس على أنها أشياء أي يتم التعامل ومعها ودراستها تماماً مثلما يتم التعامل مع الظواهر الطبيعية، ويوضح لنا دوركايم معنى الشئئية بقوله: "إننا لا نقول في الواقع أن الظواهر الاجتماعية أشياء مادية، ولكننا نقول إنها جديدة بأن توصف بأنها كالظواهر الطبيعية تماماً...". ومعنى قوله أن نعتبر الظواهر الاجتماعية على أنها أشياء هو دراستها بنفس الطريقة التي تدرس بها الظواهر الطبيعية، أي أن نتحرر من كل فكرة سابقة حول هذه الظواهر، وأن تأتي معرفتنا بها من الخارج عن طريق الملاحظة والمشاهدة، وليس من الداخل عن طريق التأمل والاستبطان، وليس معنى أننا نعالج طائفة خاصة من الظواهر على أنها أشياء هو أننا ندخل هذه الظواهر في طائفة خاصة من الكائنات الطبيعية، بل معنى ذلك أننا نسلك حيالها مسلكاً عقلياً خالصاً أي أننا نأخذ في دراستها وقد تمسكنا بهذا المبدأ الآتي، وهو أننا نجعل كل شيء عن حقيقتها، وأننا لا نستطيع الكشف عن خواصها الذاتية وعن الأسباب المجهولة التي تخضع لها عن طريق الملاحظة الداخلية مهما بلغت هذه الطريقة مبلغاً كبيراً من الدقة.

ومما تقتضيه خصوصية علم الاجتماع خاصة فيما يتعلق بالطبيعة والثقافة، يمكن التقرير أن الوقائع الاجتماعية ليست طبيعية بقدر ما هي أنساق للعلاقات التاريخية

والاجتماعية لذلك يصر بورديو على تفسير "الاجتماعي بالاجتماعي"، إذ يؤكد دوركايم بهذا الصدد: "أن السبب الحاسم لظاهرة اجتماعية لا بد من البحث عنه ضمن الظواهر الاجتماعية السابقة وليست ضمن حالات الشعور الفردي" (دوركايم، 1988، ص12). على اعتبار أن هذا المبدأ هو مبدأ جامع في كل العلوم - فيفسر: "الاقتصادي بالاقتصادي" في الاقتصاد، و"الفيزيائي بالفيزيائي" في الفيزياء، و"الرياضي بالرياضي" في الرياضيات... وهكذا. ويرتكز هذا المبدأ على ضرورة اختيار متغيرات اجتماعية لتفسير الظواهر الاجتماعية، لكي تثبت شرعية التخصص ولا نفسره خارج إطاره. على اعتبار أن صعوبة علم الاجتماع تكمن في ترسيمه أن يكون علم كباقي العلوم في علاقته الخاصة التي تؤسس بين التجربة العلمية والساذجة للعالم الاجتماعي وفي التعبير عن هذه التجارب.

أما الإجراء الآخر في القطع فيتمثل في أنه ينبغي على عالم الاجتماع أن يحارب في نفسه "التبني الاجتماعي للمعرفة" المباشرة الصادر عن الحس المشترك، وبالتلازم القطيعة مع فخ ادراك حتميات الظاهرة الاجتماعية من طرف فاعليها وشهودها. هذه القطيعة مع الحس المشترك ضرورة لحاجتين:

- لأسلوب تشكل مقولات ادراك الحس المشترك.
- لأنه يعطي تفسيرات لا علمية للظواهر الاجتماعية من جهة أخرى.

إن إحداث القطيعة مع الأحكام المسبقة المحتواة في الخطاب المشترك يبرر كذلك بكون الأفراد لديهم تفسيرات لممارساتهم غير واعين بالحتميات التي تنتج خطابهم وهذا يتطابق مع مبدأ اللاوعي على اعتبار أن "معنى الأفعال الشخصية جدا والأكثر شفافية ليست ملكا للفاعل الذي يقوم بها ولكن للمنظومة الكاملة للعلاقات التي تتم داخلها ومن خلالها". أن هذا التوكيد مزعج لأنه يعني أننا لا نستطيع تبني روايات الفاعلين لأن

شهاداتهم ليست موضوعية لأنها لا تعطينا سوى تمثلات للتجارب الفردية مبنية على أفكار مسبقة، لذا ينبغي التعامل بحذر مع هذه المواقف.

نستنتج مما سبق أن القطع السوسولوجي هو عملية تمكننا من الابتعاد الواعي عن موضوع البحث الاجتماعي، بهدف الإلمام بأقصى درجات الحياد والموضوعية، فالاقتراب الطبيعي من الموضوع يعتبره بورديو العقبة الاستمولوجية الرئيسية، ذلك أنه يتمخض باستمرار عن مفاهيم وتحاليل وهمية وجامدة في كثير من الأحيان، ويتمخض عن شروط الاقتناع بصحة هذه المفاهيم والتحاليل فمن المحتمل جدا القيام باستنتاجات مسبقة في الأبحاث الاجتماعية واعتبار أن النتائج ستكون كذا وكذا حيث أن الباحث معرض لأن يحمل أحكاما مسبقة كأى انسان آخر، إلا أنه ينبغي عليه ملاحظة الواقع الاجتماعي في تنوعه المستمر، لذلك تبرز أهمية القطع السوسولوجي فيما يتعلق بالموضوع الذي ينكب على دراسته وجعله خارج أفكاره المسبقة.

## 2.2 البناء:

يقول غاستون باشلار " أن العلم يحقق موضوعاته دون أن يجدها أبدا منجزة كليا، أنه لا يتوافق مع عالم يجب وصفه بل مع عالم يجب بناؤه" (غاستون، 1982، ص12). ويذهب بورديو إلى أن البحث العلمي ينتظم في الحقيقة حول موضوعات مصاغة مبنية بصورة تفقدها أية صلة بالوحدات التي يقسمها التصور الساذج. هذا يعني أنه يعتبر الموضوع السوسولوجي موضوع مبني منتزع. موضوع فارق صورته الخام ليصير موضوعا علميا أو قابلا للدراسة العلمية.

إذ أن بناء الموضوع وافتكاكه يكاد يكون هو أساس الممارسة السوسولوجية (بناء الموضوع الامبريقي سوسولوجيا) لكي يصبح قابلا للدراسة السوسولوجية المنهجية، وهذا يعتبر شرط أول واساسي وحاسم ويحتاجه أي باحث ينسب الى السوسولوجيا.

## 3. الممارسة السوسولوجية والمنهج

لعل من الضروري مساءلة السوسولوجيا كما تمارس اليوم من طرف العقل\* الذي قد يشمل كل منهج في المعرفة قائم على الحساب والمنطق. كل منهج مستعمل لحل المشاكل المطروحة على الفكر بدلالة معطيات تميز وضعية ما أو ظاهرة ما. (أدغار، 2007، ص06)

إذ يتعين على عالم الاجتماع كما يرى "بودن R. Boudon": «استخدام منهج يدرس الأفراد الفاعلين الموجودين في نسق للتفاعل، باعتبار أن هؤلاء الأفراد هم الذرات المنطقية لتحليله... ولا يمكن لعالم الاجتماع أن يكون مقتنعا بنظرية تدرس (تجمعا، طبقة، جماعة، أمة) باعتباره الوحدة الأساسية التي تهبط إليها النظرية... أو أن يكون مقتنعا بجهد يقوم به لتحليل ردود أفعال الأفراد حيال القيود التي يفرضها النسق (الجواد، 2009، ص466)».

على اعتبار أن الأفراد الفاعلين هم الوحدة الأساسية في الدراسة السوسولوجية إذ تنظر السوسولوجيا المعاصرة إلى الإنسان بأنه متعدد القراءات والتأويلات، فهو يساهم في التأثير على البنية من خلال أفعاله ويتأثر بدوره بفعل الظروف والشروط الاجتماعية، وهو حامل لمجموعة من الاستعدادات الثابتة والمتغيرة، كما أنه "ذات فاعلة"، يمارس أنشطة الفعل والحركة، وقادر على استثمار نفسه داخل المجتمع الذي ينتهي إليه، ويمتلك بدوره مجموعة من الاستراتيجيات التي تخول له تحقيق مصالحه وأهدافه ضمن الجماعات أو المجموعات التنظيمية التي ينتهي إليها ويتفاعل معها ومن خلالها.

\* قريبا من مصطلح العقل يحدد "ادغار موران" العقلانية: بوصفها رؤية للعالم تؤكد على الاتفاق الكلي بين ما هو عقلي (التناسق) وواقع الكون، فهي إذن تقصي من الواقع كل ما هو ليس عقليا، وكل ما ليس ذا طابع عقلي.

### 1.3. أبعاد المنهج السوسيوولوجي:

يعرف المنهج: على أنه الطريق الصحيح للوصول إلى الهدف، وهو يقظة إستمولوجية (معرفية) يتكون من ثلاث فروع (أبعاد) متكاملة: (بوزيدة، 2011)

أ. بعد إستمولوجي معرفي تبريري (مادة اليقظة): يعتمد هذا البعد على طرح الأسئلة التالية: ماذا؟ بماذا؟ إلى أين؟. ويتم التساؤل في كل مرحلة من مراحل البحث، ويكون السؤال أما سببيا إذا كان موضوع البحث يدور حول معرفة إذا ما كان وجود عامل متغير واحد أو أكثر سوف يؤثر على متغير آخر أو أكثر في النتائج أم لا، أي هذا النوع من الأسئلة يحاول تحديد السبب ومعرفة مدى تأثيره على النتائج، أي معرفة العلاقة بين المتغيرات سواء على مجموعة واحدة أو أكثر. وقد نستخدم أسئلة المقارنة في البحث العلمي إذا كنا نحتاج معرفة وتوضيح الفرق بين مجموعتين أو أكثر من خلال مجموعة من المتغيرات وهناك أساليب أخرى.

ب. بعد عقلاني انسجامي لخطوات البحث (الضرورية) ويشمل المراحل. بداية من سؤال الانطلاق إلى مرحلة الاستكشاف والتي تشتمل عن قراءات ومقابلات استكشافية وصولا إلى صياغة الاشكالية- وهنا يتم افتكاك الموضوع من طرف الباحث وتحويله من واقعه الاجتماعي إلى واقع سوسيوولوجي- ثم بناء نموذج التحليل ثم المعاينة ثم تحليل البيانات وصولا إلى مرحلة صياغة النتائج.

ت. التقنيات: أو الأدوات هي وسيلة الباحث الأساسية لجمع بياناته وللتحقق من فرضياته أو الاجابة على تساؤلاته حسب طبيعة البحث، ويستعين الباحث السوسيوولوجي بمجموعة من الأدوات منها (الملاحظة والاستبيان والمقابلة وتحليل المضمون ودراسة الحالة)، كما قد يلجأ إلى مجموعة من المقاييس وقد يستخدم الباحث ويعتمد على أداة واحدة لجمع بياناته أو يعتمد على أكثر من أداة، وذلك مرهون بصلاحية بعض هذه الأدوات لبعض المواقف والبحوث عنها من غيرها،

وبالنواحي التي يدرسها في الظاهرة وأيضاً وفقاً للأسلوب أو الطريقة أو المنهج المستخدم في الدراسة، على اعتبار أن الموضوع هو الذي يحدد المنهج.

تشمل التقنيات مختلف الوسائل التي يلجأ إليها الباحث قصد التعامل مع الواقع، وجمع المعطيات التي يتطلبها بحثه، فهي جملة الإجراءات وأدوات الاستقصاء التي تستعمل بشكل منهجي ومنظم من أجل جمع المعطيات الأولية (Données primaires)، أي تلك البيانات الجديدة التي يتحصل عليها الباحث بنفسه، والمعطيات الثانوية (Données secondaires) والتي تضم بيانات تستند إلى معطيات موجودة من قبل. وفي الغالب هناك ستة أنواع من التقنيات:

وهي: الملاحظة والمقابلة والاستبيان بما فيه ذلك سبر الآراء والتجريب، وتستعمل هذه التقنيات الأربع لجمع معطيات أولية، وهي تعتبر تقنيات مباشرة، يقوم فيها الباحث بنفسه بالتعامل مع مصادر البيانات سواء وجهاً لوجه، أو عن طريق أي وسيلة اتصال متاحة وملائمة .

أما التقنيتين المتبقيتين فهما "تحليل المضمون" و"التحليل الإحصائي"، وهما يستعملان في جمع معطيات ثانوية، ويُعدّان تقنيات غير مباشرة، ففي هذه الحالة يتعامل الباحث مع معطيات جاهزة مسبقاً.

ويمكن القول، أن كل تقنية من هذه التقنيات يمكنها أن تستعمل أداة أو أكثر من أدوات جمع البيانات من مصادرها المحددة، سواء تمثل هذا المصدر في مجتمع البحث بأكمله، أو تم اختيار عينة منه أو من خلال التعامل مع حالات بعينها.

إذن المنهج هو تفاعل هذه المحاور الثلاث، يعتمد في البداية على نوع من التيه الايجابي، الذي يخلق توتراً وهاجساً وحيرة وقلقاً لدى الباحث، وفي ضوء هذا الطرح العام (الإطار العام) تعددت المناهج في علم الاجتماع نذكر أهمها بإيجاز منها:

(1) منهج التحليل المتعدد المتغيرات: عادة ما تتحول المفاهيم المتعلقة بإشكالية البحث في علم الاجتماع إلى متغيرات، وهو تحليل ينطلق من بحث ميداني مبني على متغيرات بنيت من خلال مفاهيم تم تفكيكها إلى أبعاد بعدها تفكيك الأبعاد إلى مؤشرات، ويتدخل التحليل متعدد لمتغيرات من أجل توضيح العلاقة بين متغيرين عن طريق المتغير الاختباري لأنه قد تكون العلاقة بين متغيرين أو أكثر إحصائية وليس بالضرورة سوسولوجية.

(2) منهج تحليل المحتوى: يعتبر منهج في علم الاجتماع يعتمد على المحتويات كرموز يتعامل معها المختصون عن طريق التفكيك ثم إعادة التركيب بشكل يستطيع أن يفهمه الجمهور أو العامة، على سبيل المثال نجد في الجانب الديني من خلال تفسير الكتب السماوية. يتم من خلال تحليل المحتوى تفيئة وتكميم المعطيات قبل تأويلها وتفسيرها وتحليلها. ظهر في مجال العلوم الاجتماعية مع القرن التاسع عشر مع ظهور وسائل الاتصال الجماهيري إذ كانت له من ضرورة ملحة وذلك لبروز محتويات بحاجة إلى تأويل، وظهرت دراساته الأولى في هذا المجال مع إحدى مدارس الصحافة بكولومبيا تمولها الشركات من أجل معرفة المحتويات وكيفية تحقيق رواجها، وبعد الحرب العالمية الأولى شعرت أمريكا أن ألمانيا تريد الانتشار وتهدد كيانه فتدخلت من خلال باحثين من مدرسة الصحافة من أجل القيام بدراسة تساعد المخابرات الأمريكية في التعرف على تحركات الألمان، فكانت الدراسة الشهيرة لـ"هارولد لاسويل" في كتابه

---

\* هارولد دوايت لاسويل Harold Dwight Lasswell؛ عاش 13 فبراير 1902 - 18 ديسمبر 1978؛ عالم سياسي ومنظر إعلامي أمريكي. درس تأثير أجهزة الإعلام على تكوين الرأي العام، وهو صاحب "صيغة لاسويل" (بالألمانية) الشهيرة في تصميم الرسائل الإعلامية المستنبطة من طرح الأسئلة التالية، (من يقول، ماذا يقول، بأية وسيلة، لمن، وبأي قصد؟). وكان عضواً في مدرسة شيكاغو لعلم الاجتماع وكان أستاذ قانون في جامعة ييل. كما تولى منصب رئيس جمعية العلوم السياسية الأمريكية (APSA) و الأكاديمية العالمية للفنون والعلوم (WAAS). وحسب سيرته التذكارية التي كتبها غابرييل ألوندي لدى وفاة لاسويل ونشرتها أكاديميات العلوم الوطنية في 1987، فإن لاسويل "كان يُعد بين أهم المبدعين في العلوم الاجتماعية في القرن العشرين".

الدعاية في زمن الحرب 1920 واقترح منطلقاً منهجياً جديداً للاقترب من دراسات المحتوى.

(3) **منهج التحليل النسقي:** هو تصور جديد لبناء موضوع البحث إذ يعتبر أن كل الموجودات يمكن تصورها واعتبارها كنسق، على اعتبار النسق مجموعة من العناصر المتفاعلة مع بعضها البعض من أجل تأدية غرض معين سواء بطريقة واعية أو بطريقة لا واعية. وهي نظرية عامة ظهرت في البيولوجيا وأراد أصحابها في الأربعينيات من القرن الماضي تطبيقها على كل العلوم، يعتبر أول من طبق النسقية كمنهج في العلوم الاجتماعية والإنسانية هو "دافيد أوستون"، وذلك من خلال دراسته للنظام السياسي كنسق واعتبر أن التفاعل داخل النسق السياسي غير مهم وإنما اهتم بالتفاعل بين هذا الأخير وبين المحيط، واعتبر ما يدور داخل النسق كعلبة سوداء، وركز على دراسة المدخلات والمخرجات وكيف تتأثر وتتؤثر في المحيط.

(4) **المنهج الاثنوميثودولوجي:** يتصف هذا الاتجاه مثل غيره من الاتجاهات الظاهرية بموقفه النقدي والرافض للمنهج الوضعي في علم الاجتماع، وقد ظهر هذا المصطلح (الاثنوميثودولوجيا) في عام 1967م حينما نشر العالم الأمريكي "هارولد جارفنكل"، كتابه بعنوان: "دراسات في الاثنوميثودولوجيا" حيث صاغ جارفنكل مصطلح الاثنوميثودولوجي متأثراً بالفلسفة الظاهرية (فلسفة الظواهر) ومن ثم فقد نهض المنظور الاثنوميثودولوجي على أسس فلسفية وعلى مستوى من التنظير يوصف بأنه ما وراء النظرية. وإذا كان المنظور الاثنوميثودولوجي قد استمد جذوره من التفاعلية الرمزية والفينومينولوجية، إلا أن هذا المنظور كما يرى "ألfn جولدرنر" يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاتجاهات النقدية التي شهدتها علم الاجتماع في الستينات من القرن العشرين، وقد ظهر المنظور الاثنوميثودولوجي كأحد البدائل النظرية التي تتخذ موقفاً نقدياً من النظريات الاجتماعية التقليدية، وخاصة من الاتجاه الوضعي في علم

الاجتماع وامتداداته المعاصرة والرجوع إلى الفلسفة الظاهراتية أو فلسفة الظواهر. وقد انتقد أصحاب المنظور الاثنوميثودولوجي طرق وأدوات البحث المعتادة في علم الاجتماع مثل المسح الاجتماعي والمقابلات، كما رفضوا استخدام الاستبيانات كوسيلة لجمع البيانات الكمية التي تتطلبها الدراسات الاثنوميثودولوجية، وذلك على أساس أن مثل هذه الأساليب الكمية تفصل بين الباحث وموضوع دراسته، وتتضمن معرفة سابقة بالواقع يفرضها الباحث فرضاً على أداة بحثه، بالإضافة إلى أن موقف التفاعل بين الباحث والمبحوث يؤثر على حجم ونوعية البيانات التي يتم الحصول عليها.

(5) منهج جديد (انتوني جيدنز): حاول من خلاله إعادة تأسيس علم الاجتماع، وهذا الوصف قدمه غيدنز نفسه في كتابه على أنه يمثل جزء من مشروع أكثر شمولاً ينطوي على ثلاث اهتمامات متداخلة فيما بينها، أولها بلورة منظور نقدي لتطور النظرية السوسيولوجية خلال القرن التاسع عشر، أما الثاني فيشمل تتبع بعض الأطروحات في الفكر الاجتماعي في القرن التاسع عشر، والتي أصبحت في ما بعد مكوناً أساسياً في تشكل بنية المجتمعات المتقدمة وكذا إخضاعها للنقد، أما الثالث فيتعلق بإعادة صياغة المشكلات التي يثيرها طابع العلوم الاجتماعية باعتبارها تتخذ من النشاط الإنساني والعلاقات الاجتماعية موضوعاً لها، دون اغفال قدرة "غيدنز" على التنبؤ بمسار التطور المستقبلي لعلم الاجتماع. (غيدنز، 2000، ص25) وقد حاول "بورديو" في كتابه مهنة عالم الاجتماع صياغة ما سماه المنهج المكتمل من خلال

الجمع بين المنهج الفهمي لماكس فيبر والمنهج المقارن لـ"دوركايم" والمنهج الجدلي الماركسي وخلص إلى ما سماه بـ "الملكة السوسيولوجية".<sup>أ</sup>

### 2.3. خصائص الملكة السوسيولوجية:

حدد "بيار بورديو" في كتابه: مهنة عالم الاجتماع (Le métier de Sociologue) وطرح الأسئلة التالية من أجل تحديد ماهية الملكة السوسيولوجية وكيفية تشكيلها: ما هو علم الاجتماع؟ لمن نسب علم الاجتماع؟ ما هي الأعمال التي يقوم بها علماء الاجتماع؟ أين عمل علماء الاجتماع؟ على ماذا يعمل علماء الاجتماع؟. ويجيب "بورديو" أن علم الاجتماع: هو الدراسة العلمية للعلاقات الاجتماعية والأفعال والتمثلات التي من خلالها يشكل المجتمع. ويضيف يركز هذا الحقل المعرفي على فهم الكيفية التي يسير ويتغير بها المجتمع، ويركز علم الاجتماع حسب "بورديو" على: (العلاقات بين الأفراد والمجتمع، مسار الحياة، الأفعال الاجتماعية كما العمل والعلم والحركات الاجتماعية، المجموعات الاجتماعية مثل العائلات وشبكات الأصدقاء، والتنظيمات مثل المدارس والمؤسسات والمجتمعات بأكملها من خلال جوانبها الثقافية والاجتماعية والتكنولوجية والسياسية والاقتصادية والرهانات المخططة مثل الهجرة العالمية أو البيئة).

أ. حقول تطبيق علم الاجتماع؟: هو تخصص يعني مجموعة من مناهج المعاينة وطريقة في التفكير وإطار تحليلي في تطور، التي تطبق على مجموعة لا منتهية من الظواهر

---

\* الماركسية مذهب فكري ومنهج "علمي"، وضعه كل من "كارل ماركس" (1818-1883) و"فريدريك أنجلز" (1820-1895) في القرن التاسع عشر. وقام أتباعها منذ القرون الماضية بتطوير وتنقيحه. ويطلق لفظ "الماركسية" على كل الأطروحات الأكاديمية والسياسية والحركات الثورية التي تنطلق من التصورات والأيدولوجيا التي تبلورت على يدي مؤسسي الماركسية، وتطورت من خلال التنقيحات والإضافات والمراجعات المتلاحقة على مر السنين. وتعتبر الماركسية في نهاية المطاف، فلسفة ذات أسس محددة،<sup>أ</sup> ومنهجاً علمياً فريداً، فضلاً عن كونها دليل عمل حركي يتوفر على إستراتيجية خاصة.

الاجتماعية خاصة (الهوية والمواطنة، الاندماج الاجتماعي والتفكك، هجرة الشعوب، استراتيجيات وجود الدول السائرة في طريق النمو، تحول العادات والقيم الاجتماعية، والتكنولوجيات الأخرى، إحياء الدين أو إعادة إنتاجه، التحولات في شروط العمل الصحة العمومية، نمو اللامساواة في سوق العمل العلاقات المتبادلة بين الخاص والعام، موجات الموضة والثقافة الشعبية...الخ).

ب. بما يقوم علماء الاجتماع؟: يقومون بتحليل المعلومات التي تساهم في التطور الاجتماعي معتمدين على: (الوثائق، المقابلات، الاستمارات، سيرة الحياة، دراسة الحالة، التحليل الإحصائي تحليل الخطاب، تحليل المحتوى، تقييم النماذج والسياسات، تنسيق المشاريع، تقديم الاستشارة التعليم ما بعد الثانوي، نشر المقالات والأعمال العلمية، إنتاج المعرفة...الخ). (b.bordiou, 1968, p04)

وقد حاول "بيار بورديو"، الجمع بين المنهج الفهمي لماكس فيبر، والمنهج المقارن لـ"دوركايم" والمنهج الجدلي\* لـ"كارل ماركس"، على اعتبار أن ما يجمع علماء الاجتماع هو ملكة أو ما يسميه هو بـ"الهابتوس" (بوزيدة، 2011) Habitus، أي نسق من الشيمات "للإدراك الحسي"، "للتقويم"، و"الفعل" أي مجموعة المعارف التطبيقية المكتسبة عبر الزمن والتي تمكنا من الإدراك، والتصرف والتقييم في فضاء اجتماعي معين.

نخلص إذن إلى القول بأن الملكة أو "الهابتوس" يتحدد بخاصيتين أساسيتين:

- كونه بنية تبني انطلاقا من الفضاء الاجتماعي في وضع سوسيو تاريخي معين.
- كونه بنية بانية انطلاقا من فاعلية الفرد داخل الفضاء الاجتماعي في المساهمة في إعادة إنتاج هذا الفضاء.

وأعطى "بورديو"، خصائص الملكة السوسيوولوجية نلخصها كما يلي:

أ. تفسير الاجتماعي بالاجتماعي: إذ كما أشرنا سابقا لا يمكن تفسير المتغيرات الاجتماعية بمتغيرات اقتصادية أو إحصائية لأنها سوف تكون عاجزة عن تفسير حقيقي ودقيق للظاهرة أو المشكلة الاجتماعية على اعتبار وجود العلة في معلولها.

ب. مبدأ لا شفافية الواقع الاجتماعي: وهذا المبدأ أيضا هو خاص بكل المعارف العلمية، إذ لا توجد معرفة ماثلة أمامنا إذ لا علم إلا في ما اختفى.

ت. مبدأ وجود العلة في معلولها: وأنها تترك آثار يمكن من خلالها معرفتها واكتشافها، وهي تلزمه وجودا أو عدما، هذه الفكرة هي التي غيرت ما كان سائدا قديما أي أن شرف العلم بشرف موضوعه، هذه الفكرة التي عبر من خلالها على المنهج الواحد الأحد أي المنهج الرباني، فوفق هذا المبدأ تتأسس المعرفة الحقيقية على الملاحظة والتجربة المكتملة رياضيا ولكن السؤال المطروح هنا هل اتفق المؤسسون حول المنهج؟ نقول للإجابة على هذا السؤال لا، لأنه جاء دوركايم بالمنهج المقارن من خلال مقارنته بين المجتمع الصناعي والمجتمع البدائي وعزل الظاهرة تجريبيا في الذهن كتعويض للمخبر وهذا ما عبر عنه بدراسة الظاهرة منهجيا كأشياء. واعتمد ماركس على المنهج المقارن من خلال المقارنة عبر الزمن مستخدما ما يعرف عنده بالمادية التاريخية من خلال العودة إلى الآثار التاريخية من أجل التفسير والمقارنة، وأصبح محرك المجتمع عنده هو الصراع والتناقض بحيث تنفي المتناقضات نفسها وتدفع المجال إلى الأمام حتى تنتهي تلك التناقضات.

ث. لا توجد طبيعة إنسانية ولا طبيعة اجتماعية: إذ أن المبدأ الوحيد الثابت هو التغير، ولا يمكن جعل التطورات التاريخية كأشياء طبيعية لا تتغير.

ج. مبدأ الابتعاد عن تفسير الظواهر الاجتماعية المعقدة بمتغيرات بسيطة، هذا ما يبين أن على الباحث الغوص في تفكيك كل متغيرات الظاهرة الاجتماعية أو المشكلة المدروسة ولا يكتفي بتفسيرها بمتغيرات بسيطة قد لا تعبر عنها أصلاً.

ح. مبدأ أسبقية النظري عن غيره: فالملاحظة والتجربة تكاد لا تعني شيئاً وحدها، وكأن البصر لا يرى بل البصيرة (العقل) هي التي ترى، أو بمعنى آخر النظرية، لأنه في العلوم التجريبية تتجسد النظرية في الجهاز الذي يعمل به الباحث، أما في علم الاجتماع فالميكروسكوب الاجتماعي هو النظرية، وحتى لو أعطي الميكروسكوب للإنسان العادي لا يستطيع أن يميزه لكن الباحث يميزه لأنه مدعم بمعرفة مسبقة سواء عن طبيعة الجهاز أو التقنية المستخدمة في البحث أو عن طبيعة الشيء المبحوث عنه، إذ لا يمكن للباحث السوسولوجي أن يلاحظ إلا إذا كان مدعماً بنظرية توجه بصره (بوزيدة، 2011). فالمدرسة الانجلوسكسونية ترى على العكس من ذلك وتدعو إلى أنه يجب أن نترك الواقع ينعكس كمرآة، إذ أن العارف لا يفعل شيئاً في الموضوع المعروف ليصل إلى المعرفة المكتملة. ولكن تبين محدودية جدوى هذا الطرح، مع وجود أفكار أخرى تسيطر على الفكر وتوصلوا إلى ضرورة أن تكون العين متحكم فيها من طرف العقل ولذا فمن الأفضل وجود النظرية، لكي يبصر الباحث عن طريق تلك النظرية ومن خلالها.

لعله يفهم على أن المنحى العام أن استخدام النظرية هو أن ننزل بها إلى الواقع الملموس ونستنطقه من خلالها باستخدام الأدوات والتقنيات ومنهجية تعتبر الوسيلة الوحيدة لا غير لإنتاج خطاب سوسولوجي علمي؟. ولكن قد يتساءل البعض: ماذا نفعل بالكتابات والمساهمات الفكرية التي أنتجت في حقل العلوم الاجتماعية ولم تستعمل هذه التقنية بل قد تكون مناهضة لها؟. فهذه المقاربة السوسولوجية يتحدد في الاقتراب من الواقع ومحاولة فهمه وتحليله بطريقة موضوعية.

وهناك طروحات أخرى ترى أن الفكر والواقع لا يلتقيان أو يلتحمان، وكأن الدراسة التي تسعى لأن تكون علمية هي تلك التي تحدث القطيعة مع الفكر وتنشغل بالواقع، بحجة أن الانشغال بالفكر هو من اختصاص الفلسفة، وبالتالي يدعو أصحاب الاتجاه الامبيرقي التحليل السوسولوجي إلى إحداث القطيعة مع النظرية وترك الواقع يعبر عن نفسه بنفسه. على سبيل المثال نجد مدارس بأكملها يتجهون إلى منحى النظر إلى الواقع وجها لوجه فيتخطوا المظاهر المباشرة، ولذلك كان للمنهج أهمية كبرى عندهم.

##### 5. خاتمة:

لعل القائمين بفعل الممارسة السوسولوجية ونقصد بهم الأساتذة الباحثين الذين يعتبرون كعلماء اجتماع أو مشاريع لعلماء اجتماع لا يحذون حذو العلماء فهم لا يدرسون الوقائع بقدر ما يدرسون الوثائق، كما أنهم وقعوا سجناء لواقع يظنون أنهم باستطاعتهم ملاحظته من الخارج.

قد لا يلام الأساتذة الباحثون كثيرا لأنهم بقوا يحللون الواقع انطلاقا من أبراجهم العاجية -والمجتمع حاليا يحتاج إلى علماء ميدان يحملون انشغالاته لا علماء فنادق- لكنهم جزء من منظومة كلية لا تحبذ البحث عن ما هو مخفي خاصة إذا كان يمس المجتمع والحقائق الاجتماعية الصادمة في كثير من الأحيان. وقد فرضت المتغيرات المعرفية العديد من الآثار والتحديات على أهداف ووظائف وبرامج منظومة البحث العلمي عندنا الممثلة في مؤسسات التعليم العالي.

ولعل قدرة المجتمع على إنتاج المعرفة واختيارها وتطبيقها وفق احتياجاته وقدرته على إعادة استخدامها يعتبر أمرا هاما لتحقيق النمو الاقتصادي المستدام، باعتبار المعرفة عامل حاسم في تنمية المجتمعات وتقدمها، وأصبح النمو الاقتصادي والاجتماعي ما هو إلا نتيجة لعملية تراكم المعرفة أكثر من كونه تراكم لرأس المال المادي، وأصبح الاستثمار في

القيم المعنوية غير الملموسة التي تكون قاعدة المعرفة كالبحت والتطوير، أكثر أهمية وأعظم وقعا على الاستثمار في القيم المادية.

## 6. قائمة المراجع:

1. باشلار، غاستون: (1982). تكوين العقل العلمي "مساهمة في التحليل النفساني للمعرفة الموضوعية"، ترجمة: خليل أحمد خليل، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط2.
2. دوركايم، ايميل: (1988). قواعد المنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمود قاسم، مصر: دارالمعرفة الجامعية.
3. مورغان، أدغار: (2007). العقل والعقلانية، دفاتر فلسفية- نصوص مختارة، إعداد وترجمة: محمد سبيلا، عبد السلام بنعبد العالي، المغرب: دار طوبقال للنشر، ط2.
4. خلف عبد الجواد، مصطفى: (2009). نظرية علم الاجتماع المعاصر، عمان: دار المسيرة، ط1.
5. بوزيدة، عبد الرحمان: (2011). محاضرات في مقياس: المنهجية والابستمولوجيا، جامعة الجزائر2، مدرسة الدكتوراه.
6. غيدنز، انتوني: (2000). قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع، ترجمة: محمد محي الدين، مصر: المشروع القومي للترجمة.
7. B, Bordiou : (1968) et allia, Le mité de Sociologue: bordas, paris.